الامام البيهق وكتابه الجامع لشعب الايمان

بقلم : د. عبد العلى عبد الحميد الأزهرى

هو الامام، العلامة، المحدث، الفقيه، الاصولى، الزاهد أبو بكر أحمد ابن الحسين بن على بن موسى، البيهقى، الخسروجردى، الشافعى.

والبيهقى نسبة إلى بيهق، وهى كما — وصفها ياقوت(1) — ناحية كبيرة وكورة واسعة، كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور، وتشتمل على ثلاث مائة واحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين. وكان قصبتها اولا خسروجرد ثم صارت سابزوار والعامة تقول: سبزور.

وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء والعلماء، والفقهاء والأدباء.

وُلد الامام البيهقى فى شعبان سنة أربع وثمانين وثلاث مائة، وتوفى سنة ثمان وخمسين وأربع مائة فى جمادى الأولى(2). عاش ٧٤ سنة قضاها فى خدمة العلم: فى التعلم والاستفادة، والبحث والدراسة، والتصنيف والتأليف، والتدريس والإفادة، مع التحلى بصفات كريمة كالقناعة باليسير والصبر والمثابرة، والتجمل بالزهد والورع. كانت نفسه أشربت حب العلم والمعرفة فأحاطها من جميع أقطارها، وملك خوُف الله — عز وجل — ومحبة دينه قلبه من كل جانب فلم يتركا فيه مكانا للدنيا وأسبابها ولذائذها ومنافعها. ركز همومه كلها على هدف واحد وهو العمل على بث العلم وإفادة الناس ونشر السنة والدفاع عنها ضد

(1) معجم البلدان (١/٥٣٧ — ٥٣٨)

(2) راجع سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/١٦٤) وذكر محققه مصادر ترجمة البيهقى.

من يتصدى للنيل منها أو الغض من شأنها وكان فى ذلك كله متدرعا بسلاح من التقوى والورع . والتواضع وكسر النفس مع نزاهة القصـد ، وخلوص النية ، وسعة الاطلاع ، وقوة الحفظ ، ودقة الفهم .

رحل وطوّف الآفاق فى طلب العلم فسافر إلى العراق و الجبـال والحجاز وتجول فى قراها ومدنها وسمع من شيوخها وعلمائها .

وبعـد ما حصل على بغيتـه وسكنت نفسه المتعطشة إلى الطلب والحصول رجع إلى موطنه واستقر هناك مقبلا على التأليف والتصنيف ، والبحث والتدريس بنفس مطمئنة راضيـة لايقلقها طلب معاش ، وفكر متجمع لا يشوشه التفكير فى مال و لا تجارة ، و لا محاولة التقرب إلى ذى سلطان . وهـذه مزية يجب تقـديرها لأن العصر الذى عاشه كان يسوده غير قليل من الفتن و القلاقل السياسية والدينية .

عصره : عاش البيهقى فى فترة كانت من أشـد الفترات اضطرابا و أكثرها فتنا وقلاقل[١] . كانت بـلاد المسلمين كلها تموج بالفتن وكانت الأوضاع السياسيـة غير مستقرة . وضعف الخلافة المركزية فى بغداد أتاح لكل مغامر فرصة الوثوب على الحكم باقتطاع جزء من آراضى المملـكة الاسلاميـة الممتدة لإقامة دولة جديدة . وهكذا كثرت الدويلات فى طول بـلاد المسلمين وعرضها . ولم تكن العلاقات بينها تقوم — دائمـا — على مودة وصفاء وتفاهم وتعاون ، بل كان يجرى بينها حروب متواصلة مما قضى على الأمن والسلام ، وبات الناس يعيشون فى خوف دائم وقلق مستمر ، وصار بلاط الأمراء والوزراء مسرح مؤامرات

(١) راجع فى ذلك « الكامل » لابن الأثير و« البداية والنهاية » لابن كثير ، و« شذرات الذهب » حوادث سنة ٤٠٨ ، ٤٢٠ ، ٤٥٨ .

و مكيدات. و لم يكن يهم الامـام البيهقى ما كان يجرى فى الدوائر السياسية، ولكن عصره كان يموج بنوع آخر من الفتن كان مصدر قلق لكل عالم مخلص.

كانت الأمة الاسلاميـة انقسمت إلى معسكرات متناحرة متقاتلة، فهناك الشيعـة فى حرب مع أهل السنة، و هؤلاء فى جدال مع المعتزلة. وأهل السنة أنفسهم لم يكونوا متوافقين فيما بينهم، مجتمعين على كلمة واحدة. فكانت العلاقات بينهم عبـارة عن مطارحات ومناقشات كانت سرعان ما تتحول إلى قتال دائم. وكانت الوحـدة التى دعا إليها الاسلام اختفت، والألفة بين الناس تلاشت، وعواطف الأخوة والمحبة انعـدمت، ومات الشعور بالتعاون والتضامن و حل مكانه الشعور بالأنانية والكراهية والحقد. وكانت النتيجة أن ضعفت شوكة المسلمين وتلاشى ذلك الرعب الذى نصر الله به هذه الأمة، وذهبت ريح المسلمين مصداقا لقول الله ـ تبارك وتعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[1]﴾. وأهمل العلماء واجبهم الدينى من تأليف القلوب والاصلاح بين الناس وصاروا فى مقدمة الذين يوقدون نيران الفتن ويثيرون الشغب.

وهذا التشتت فى صفوف الأمة الاسلاميـة وما تلاه من ضعف وهوان لم يكن ليخفى على أعداء الاسلام الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، فاغتنموا ذلك، وأعـدوا عـدتهم وبدأوا حملاتهم من وراء الثغور، وأذاقوا المسلمين أنواعا من العذاب من القتل والأسر والتشريد.

وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين يلعبون ـ أحيانا ـ دورا قياديا فى إثارة الفتنة، وكان انحيازهم إلى طائفة معينة يعنى غلبتها وانتصارها من مخالفيها الذين كانوا يتعرضون لأقسى المحن و أشد البلايا على أيديهم. فمثلا انتصر

(١) سورة الأنفال: ٤٦

الخليفة القادر بالله لأهل السنـــة وسعى فى التنكيل بالشيعة و الباطنية و الجهمية والمعتزلة . وسار على خطاه السلطان محمود بن سبكتكين ــ الحاكم على خراسان ــ فبالغ فى قتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة وصلبهم وحبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم .

و هكذا تمتع أهل السنـــة بنوع من حماية الدولة وأفادوا منها فى تنكيل خصومهم ، ولكن لم تدم هذه الحماية وسرعان ما دالت الدولة عليهم ، فمات الخليفة وزالت دولة بنى سبكتكين ، واستولى آل سلجوق على الملك فى خراسان ، ووجد أهل التشيع والروافض والاعتزال فرصة للانتصار من أهل السنة ، فكالوا لهم الكيل ، وأشعلوا ــ بمساعدة من الحكام ــ نيرانا للفتن اصطلى فيها البيهقى نفسه مع غيره من العلماء ، فعذبوا وطردوا من ديارهم ، وسُجنوا ، ونهبت بيوتهم ، وأبعدوا عن الوظائف .

حدث ذلك فى سنـــة خمس وأربعين وأربعمائة ، وكان طغرل بك سلطان الوقت . وكان سنيـــا حنفيا ، والأحناف عُرفوا بلين الجانب مع المعتزلة[1] . فانتهز هؤلاء الفرصة وتقربوا إلى وزيره عميـــد الملك أبى نصر محمد بن نصر الكندرى الذى يقول عنه السبكى[2] ــ الذى ذكر تفاصيل هذه الفتنة ــ كان معتزليا ، رافضيا ، خبيث العقيـــدة . كان جمع أنواعا من النقائص والنقائض . فكان يقول بخلق القرآن وغيره من قبائح القدرية ، وسب الشيخين وسائر الصحابة وغير ذلك من قبائح شر الروافض ، و تشبيـــه الله بخلقه وغير ذلك من قبائح الكراميـــة والمجسمة . فاجتمع حوله طوائف من القدرية والباطنية وتظاهروا

(١) راجع السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٢٤٢ .
(٢) طبقات الشافعية (٢/٢٧٠)

بالانتساب إلى المذهب الحنفي وتقربوا إليه ، وما زالوا يمكرون ويدبرون حتى أغروه بالتوسل لدى السلطان وإقناعه بسب المبتدعة على المنابر فى أيام الجمع فأصدر أمره بذلك ، فاتخذ الكندرى ومعارضو الأشعريين ذلك وسيلة إلى سب أبي الحسن الأشعرى على المنابر وأحلوا بأصحابه من الشافعية أنواعا من النكال بالإهانة والأذى ، والضرب والسجن ، والمنع من الوعظ والتدريس والاقصاء عن الوظائف — ولا سيما الخطابة — وإحلال الأحناف محلهم ونسبوا إلى الأشعرى — زورا وبهتانا — أقوالا لم يقلها .

وقد رد على هذه الاتهامات الباطلة أبو القاسم القشيرى فى رسالة وجهها إلى علماء البلاد وسماها « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من الفتنة[1] » وأثارت الرسالة مشاعر العلماء فكتبوا إلى الوزير يطلبون منه إخماد نيران هذه الفتنة التى طار شررها فى الآفاق ووصل إلى الشام والعراق والحجاز . وكان البيهقى ممن كتبوا إلى الوزير ولكن هذه الرسائل لم تجد أذنا طاغية لدى الكندرى وعملائه الذين سدروا فى غيهم وتمادوا فى عدوانهم حتى ضاقت على أهل السنة الأرض بما رحبت واضطروا إلى الفرار بأنفسهم وأهاليهم ، فمنهم من ذهب إلى العراق ، ومنهم من ذهب إلى الحجاز ، وكان فيمن ذهب إلى الحج فى تلك السنة البيهقى وأبو القاسم القشيرى وإمام الحرمين الجوينى . ويقال : جمع الموسم تلك السنة أربع مائة قاض من قضاة المسلمين من الشافعية والحنفية ، هجروا البلاد بسبب عدوان الوزير الكندرى وعملائه .

وقدر الله أن يموت السلطان طغرل بك فى عام ٤٥٥ هـ وأن يتولى الملك بعده ابنه ألب أرسلان ، ولم يمض شهور حتى نقم السلطان الجديد على الكندرى

(١) انظر نص الرسالة فى المرجع المذكور (٢/٢٧٥ — ٢٨٨)

وعزله، وولى الوزارة مكانه نظام الملك وأمره بالقبض على الكندرى وسجنه ومصادرة أمواله ثم قتله . وأبطل الوزير الجديد ما كان الكندرى بدأ من سب الأشاعرة على المنابر ، وانتصر للشافعية ، وأكرم علماءهم .

فى هذا العصر المليء بالمحن والفتن عاش الامام البيهقى وجاهد وكافح فى سبيل مناصرة السنة ، وألف كتبا قيمة فى علم الحديث والفقه وأصول الدين والزهد .

وهذه العلوم الأربعة هى أبرز ما عند البيهقى ، ويبدو أن علم الحديث كان أول ما استرعى انتباهه وجذبه إليه فاندفع فى تعلمه وتلقيه من الشيوخ برغبة شديدة وطموح جامح . فبدأ السماع فى سن مبكرة وقصد الشيوخ الكبار وقام برحلات طويلة فى طلب الحديث حتى تم له ما أراد ، وأتقن هذا العلم وتبحر فيه وتبوأ فيه مكانة مرموقة ومنزلة عالية . يقول فى وصفه اهتمامه بدراسة الحديث[1] :

« وإنى منذ نشأت وابتدأت فى طلب العلم أكتب أخبار سيدنا المصطفى صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ، وأجمع آثار الصحابة الذين كانوا أعلام الدين وأسمعها ممن حملها ، وأتعرف أحوال رواتها من حفاظها ، واجتهد فى تمييز صحيحها من سقيمها ، ومرفوعها من موقوفها ، وموصولها من مرسلها ، كما أشار إلى منهجه فى التأليف فيما يتعلق بقبول الأخبار وردها بقوله فى مقدمة كتابه « دلائل النبوة[2] » .

« وعادتى فى كتبى المصنفة فى الأصول والفروع الاقتصار من الأخبار على ما يصح منها دون ما لا يصح ، والتمييز بين ما يصح وما لا يصح ، ليكون

(١) معرفة السنن والآثار .

(٢) أيضا (ص ٥٨ — ٥٩)

الناظر فيها من أهل السنة على بصيرة لما يقع الاعتماد عليه، ولا يجد من زاغ قلبه من أهل البدع عن قبول الأخبار مغمزا فيما اعتمد عليه أهل السنة من الآثار».

وتوفرت له الوسائل الكفيلة لبلوغ درجة عالية من الاتقان والخبرة فى علوم الحديث — رواية ودراية — بأن رزقه الله شيوخا كانوا بلغوا الغاية فى هذا الفن. ولما أحسوا منه الرغبة الصادقة واكتشفوا مواهبه عُنوا به عناية بالغة وقاموا بتدريبه على أحسن وجه وأعدوه أكمل إعداد لكى يكون خلفا لهم فى بث العلم وإذاعة السنة عن بصيرة ومعرفة. ومن أهم شيوخه فى الحديث أبو عبد الله الحاكم صاحب «المستدرك على الصحيحين» وأبو على الروذبارى راوى كتاب «السنن» لأبى داود، وأبو الحسين بن بشران، وأبو الحسين القطان. وترك مؤلفات نافعة فى الحديث حازت إعجاب العلماء وتقديرهم قديما وحديثا. كما اكتسبت لمؤلفه اعترافا بالنبوغ فقال النووى[1]: «إن الحفاظ متفقون على أنه أشد تحريا من أستاذه وشيخه الحاكم أبى عبدالله صاحب «المستدرك».

وقال تقى الدين ابن تيمية[2]: «البيهقى أعلم أصحاب الشافعى بالحديث» ولقبه أستاذنا السيد أحمد صقر[3] «بمنظم السنة» لجهوده فى تنظيم السنة وتقريبها إلى طلابها.

وأهم مؤلفاته فى الحديث: «السنن الكبرى» «والجامع لشعب الايمان» و«دلائل النبوة» وغير ذلك.

---

(١) تدريب الراوى (١٠٦/١) نقلا عن المجموع شرح المهذب.

(٢) الفتاوى (٢٤ /٣٢)

(٣) مقدمة دلائل النبوة (٧)

البيهقي والفقه : لم تكن رغبة البيهقي في تعلم الفقه ومعرفة وجوه الاستنباط أقل من رغبته في إتقان صناعة الحديث ، ولذلك اهتم منذ مبدأ أمره بهذا العلم وتلقاه من الشيوخ الكبار في عصره حتى بلغ رتبة الاجتهاد والفتيا . يقول الذهبي[١]: لو شاء البيهقي ان يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف . ولكنه آثر البقاء في حدود المذاهب المعروفة في أيامه ووقع اختياره على مذهب الامام المطلبي أبي عبد الله الشافعي لأنه وجده — بعد المقارنة — أقرب إلى السنة من غيره من المذاهب الفقهية . فاختياره لمذهب الشافعي لم يكن إلا بعد دراسة و بحث و مقارنة و تحقيق و اختبار واقتناع . ولكنه تمسك بمسلك الاعتدال فلم يتعصب لمذهبه يؤيده بحق وبباطل ، بل ذهب يدافع عن كل المذاهب و فقهائها ، وأعلن أنهم كلهم على حق ، بنى كل واحد منهم مذهبه على مبلغ علمه من الكتاب و السنة . و قصد الحق في الاجتهاد للمسائل الحادثة .

وقام البيهقي في خدمة مذهب الشافعي أحسن قيام فتجرد بجمع نصوصه وشرح أقواله وتبيين آرائه ووقف حياته كلها في سبيل مناصرة نظرياته الفقهية حتى قال امام الحرمين أبو المعالي الجويني[٢] :

« ما من فقيه إلا وللشافعي عليه منة إلا أبا بكر البيهقي فإن المنة له على الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه » .

ويقال : ان الشافعي أثنى على كتبه كما يحكى ابنه أبو علي بن البيهقي ان ثلاثة أشخاص رأوا الامام في المنام . وهو يمسك بيده تصانيف البيهقي ويلقبه

(١) سير أعلام النبلاء (١٦٩/١٧)

(٢) نفس المرجع (١٦٨/١٧) تبيين كذب المفتري (٢٦٦)

بالفقيه . يقول الذهبي[١] معلقا على هذه الرواية : « هذه رؤيا حق ، فتصانيف البيهقي عظيمة القدر ، غزيرة الفوائد ، قل من جود تواليفه مثله »

ومن تصانيفه المفيدة فى الفقه « المبسوط فى نصوص الشافعى » « ومعرفة السنن والآثار » و « الخلافيات بين أبي حنيفة و الشافعى » و « بيان خطأ من أخطأ على الشافعى » .

البيهقي وعلم الكلام : عاش البيهقي فى فترة كانت مسائل علم الكلام موضوع مناقشات ومناظرات بين علماء الفرق المختلفة ، فلم يجد بدا من أن يدلى بدلوه فى هذا المضمار ، فألف كتبا حول « الايمان » و « القدر » و « الرؤية » و « الأسماء والصفات » و « الاعتقاد » وكان منهجه فى كتبه هو ما جرى عليه أصحاب الحديث من إثبات الحق بنصوص من القرآن والسنة . ولم يلجأ إلى دلائل العقل والمنطق إلا للرد على معارضى السنة ، أو مجاراة للخصوم .

وكان من شيوخه فى علم الكلام الأستاذ أبو اسحاق الأسفرايينى والقاضى أبو بكر الباقلانى والامام أبو بكر بن فورك ، وهؤلاء الثلاثة عُرفوا بجهودهم فى نصر مذهب أهل السنة فى المسائل الكلامية وكان الصاحب بن عباد — مع كونه معتزليا — يثنى عليهم ويقول[٢] :

« ابن الباقلانى بحر مغرق ، و ابن فورك صل مطرق ، و الاسفرايينى نار تحرق » .

البيهقي والزهد : كان الامام البيهقي ممن طلق الدنيا وآثر عليها الآخرة فكان يعيش حياة زهد وتقشف بنفس مطمئنة راضية قانعة باليسير ، وكان يقضى أوقاته

---

(١) السير (١٦٧/١٧)

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٠/٢) السير (٣٥٤/١٧)

فى ذكر الله ، يلازم العبادات ، ويتحمل المشقات ويفارق الشهوات . قيل : انه سرد الصوم ثلاثين سنة[١] وكان قدوته فى حياة الزهد والورع ومرشده فى منازل التصوف جماعة من الزهاد عرفوا بوصول الغاية فى هذا الفن وفى مقدمتهم : أبو عبد الرحمن السلمى صاحب كتاب « طبقات الصوفية » ، وأبو سعد المالينى وأبو سعد الخركوشى وغيرهم .

« الجامع لشعب الايمان »

مر بنا ان الامام البيهقى ترك ثروة ضخمة من دواوين السنة وكتب الفقه والأصول وغيرها من العلوم الدينية . أنعم الله عليه بالقدرة على جودة التأليف وحسن الترتيب ، وكتب لمؤلفاته القبول لاخلاصه النية وصدقه فى العمل . قال الذهبى[٢] :

« بورك له فى عمله لحسن مقصده وقوة فهمه وحفظه ، وعمل كتبا لم يسبق إلى تحريرها » .

واشتهرت مؤلفاته فى حياته وفازت باعجاب العلماء والشيوخ . بالغ السبكى فى الثناء على مؤلفاته فقال[٣] :

« أما « السنن الكبير » فما صنف فى علم الحديث مثله تهذيبا وترتيبا وجودة . وأما المعرفة — « معرفة السنن والآثار » فلا يستغنى عنه فقيه شافعى وأما « المبسوط فى نصوص الشافعى » فما صنف فى نوعه مثله . وأما كتاب « الأسماء والصفات » فلا أعرف له نظيرا . وأما كتاب « الاعتقاد » وكتاب

(١) طبقات الشافعية للسبكى (٥/٣)
(٢) تذكرة الحفاظ (١١٣٢/٣)
(٣) طبقات الشافعية (٤/٣)

« دلائل النبوة » وكتاب « شعب الايمان » وكتاب « مناقب الشافعى » وكتاب « الدعوات الكبير » فأقسم ما لواحد منها نظير. وأما كتاب « الخلافيات » فلم يسبق إلى نوعه ولم يصنف مثله ... ».

ثم ذكر مؤلفاته الأخرى وقال :

« وكلها مصنفات نظاف مليحة الترتيب والتهذيب . كثيرة الفائدة ، يشهد من يراها من العارفين بأنها لم تتهيأ لأحد من السابقين » .

وبلغ عدد مؤلفاته — حسب استقرائى — خمسة وثلاثين كتابا بالاضافة إلى رسالتين طويلتين وجه احداهما إلى عميد الملك الكندرى وزير السلطان طغرل بك أيام محنة الأشاعرة ، والأخرى إلى الشيخ أبى محمد الجوينى لما اطلع على كتابه « المحيط » .

و « الجامع لشعب الايمان » موسوعة حديثية هامة تتضمن الأحاديث التى تشرح شعب الايمان التى أشار إليها النبى ﷺ فى حديثه المشهور بقوله :

« الايمان بضع و سبعون شعبة فأرفعها قول لا إله إلا الله ، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان » .

والكتاب أصبح مرجعا هاما فى الحديث اعتمد عليه من جاء بعد البيهقى وان كان المؤلف نفسه قصد منه اكمال النقص الذى أحسن بوجوده فى « المنهاج للحليمى ، لكنه أصبح كتابا مستقلا أكثر فائدة من « المنهاج » نفسه .

نعرف من مطالعة الكتاب ان البيهقى ألفه بعد تأليفه الكتب التالية :

« السنن الكبرى » و« المدخل » و «الأسماء والصفات » « والايمان »و« القدر » و « الرؤية » و « دلائل النبوة » و « البعث والنشور » و « اثبات عذاب القبر » و « الدعوات » و « الآداب » و « فضائل الصحابة » لأنه يشير إلى هذه الكتب

ويحيل إليها فى بعض المباحث .

وكان الدافع لتأليف هذا الكتاب أن البيهقى اطلع على كتاب « المنهاج » فى شعب الايمان » للفقيه الشافعى الأصولى أبى عبد الله الحسين بن الحسن الحليمى ، فأعجب بـه وأدرك ضرورة توفير مثله نظرا لما كان يجرى فى عصره من مناقشـات ومناظرات حول أصول الدين الاساسية مما كان يوقع الشباب والطلبة فى حيرة من الأمر .

و الحليمى نفسه يصرح فى مقدمة كتابه[1] أنه تصدى لتأليفه لما رأى من سيطرة الجهل والغفلة على عقول النـاس ووقوع الاعراض عن العلوم بالجملة ، والتهافت فى الحلال والحرام ، والتنافس فى رتب الدنيا ، والتغافل عن درج الأخرى والانقياد لدواعى الهوى ، والميل فى عامة الأمور إلى الدعة .... وفساد النيات والدخل ، وفتور العزائم و الهمم حتى أصبحت طاعة الله تعالى تقام فيما تدعو إليه الضرورات الحاصلة ، و تترك فيما تحرك عليه التوقعات الآجلة ، وكان الهم بالعلم بقدر الهم بالعمل . والنتيجة أن الناس اقتصروا فى العلم والعمل بما اضطروا إليه بسبب اجتماعى أو معاشى . أما فى التوحيد ومسائل أصول الدين فقد رضوا فيها بالتقليد ، وعابوا الذين اشتغلوا به وجاهدوا به أعداء الله تعالى جده .

والجدير بالذكر أن ما يقوله الحليمى عن انصراف الناس عن علوم الدين وانكبابهم على علوم الدنيا ينطبق تماما على عصرنا الحاضر حيث يتسارع المسلمون إلى تعلم العلوم والصناعات التى تمكنهم من رفع مستواهم الاجتماعى والاقتصادى ولو كان ذلك على حساب معرفة مبادىء دينهم .

وقد استنكر الحليمى موقف الفقهاء فى عصره وتصورهم عن تعلم علم التوحيد

(١) راجع المنهاج (١/٧ — ١٠)

وعاب عليهم انهم يدعون النبوغ فى الفقه ويذمون من يشتغل بعلم الكلام ويُزرون بقدره و يبخسون بحقه بينما اسم الفقه يتضمن علوم الشريعة كلها ـ أعلاها الذى به يتوصل إلى معرفة الله ووحدانيته وقدسيته وعامة صفاته، ومعرفة أنبياء الله ورسله ثم يأتى بعد ذلك علم العبادات وغيره.

وتعرض الحليمى فى الأبواب الأولى من الكتاب لبيان حقيقة الايمان وامكان زيادته ونقصانه، والألفاظ الدالة عليه، ومن يصح ايمانه ومن لايصح. وغير ذلك من المباحث المتعلقة بالايمان كما كان يدرسه المتكلمون فى ذلك العصر، ثم تناول شعب الايمان وحصرها فى سبع وسبعين خصلة وهى:

(١) الايمان بالله عز وجل (٢) الايمان بالنبي ومن تقدمه من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين (٣) الايمان بالملائكة (٤) الايمان بالقرآن وسائر الكتب المنزلة (٥) الايمان بالقدر خيره وشره (٦) الايمان باليوم الآخر (٧) الايمان بالبعث (٨) الايمان بالحساب و الميزان (٩) الايمان بالجنة و النار (١٠) محبة الله تعالى (١١) مخافة الله تعالى و التفكر فى وعيده (١٢) رجاؤه والثقة بوعده، وفيه ذكر الدعاء وشروطه وآدابه (١٣) التوكل على الله ـ وفيه القول فى التداوى من الأمراض والاسترقاء (١٤) حب النبي ﷺ وآله وأصحابه (١٥) تعظيم النبي ﷺ و إجلاله وتوقيره (١٦) الشحّ بالدين (١٧) طلب العلم (١٨) نشر العلم (١٩) تلاوة القرآن وآدابها (٢٠) الطهارات (٢١) الصلوات (٢٢) الصدقات (٢٣) الصيام (٢٤) الاعتكاف (٢٥) المناسك (٢٦) الجهاد (٢٧) المرابطة فى سبيل الله (٢٨) الثبات للعدو عند اللقاء (٢٩) أداء خمس المغانم (٣٠) العتق ووجه التقرب به إلى الله (٣١) الكفارات (٣٢) الايفاء بالعهود (٣٣) تعديد نعم الله تعالى وما يجب

من شكرها (٣٤) حفظ اللسان (٣٥) الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها (٣٦) تحريم النفوس والجنايات عليها (٣٧) تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها (٣٨) تحريم أموال الناس (٣٩) المطاعم والمشارب وما يجب من التورع عنها منه (٤٠) الملابس و الزينة و الأوانى و ما يكره منها (٤١) تحريم الملاعب والملاهى (٤٢) الاقتصاد فى النفقة وتحريم أكل المال بالباطل (٤٣) الحث على ترك الغلّ والحسد (٤٤) تحريم أعراض الناس و ما يلزم من ترك الوقع فيها (٤٥) اخلاص العمل لله و تحريم الرياء (٤٦) السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة (٤٧) معالجة كل ذنب بالتوبة منه (٤٨) القرابين و الإبانة عن معناها و غرضها (٤٩) طاعة أولى الأمر (٥٠) التمسك بما عليه الجماعة (٥١) الحكم بين الناس بالعدل (٥٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٥٣) التعاون على البر والتقوى ونصرة المظلوم و إغاثة اللهفان (٥٤) الحياء (٥٥) بر الوالدين (٥٦) صلة الأرحام (٥٧) كظم الغيظ وحسن الخلق ولين الجانب والتواضع (٥٨) الاحسان إلى المماليك (٥٩) حق السادة على المماليك (٦٠) حقوق الأولاد و الأهلين على الناس (٦١) مقاربة أهل الدين وموادتهم وإفشاء السلام بينهم (٦٢) رد السلام (٦٣) عيادة المريض (٦٤) الصلاة على من مات من أهل القبلة (٦٥) تشميت العاطس (٦٦) مباعدة الكفار والمفسدين والغلاظة عليهم (٦٧) اكرام الجار (٦٨) إكرام الضيف (٦٩) الستر على أصحاب القروف (٧٠) الصبر على المصائب (٧١) الزهد وقصر الأمل (٧٢) الغيرة والمذاء (٧٣) الاعراض عن اللغو (٧٤) الجود و السخاء (٧٥) رحم الصغير و توقير الكبير (٧٦) الاصلاح بين الناس (٧٧) أن يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه.

وقـد تكلم الحليمى عن كل خصلة بكلام مفيد وأطال فى شرح الخصال الأولى وبخاصة تلك التى تتضمن بالعقيده واختصر كلامه فى بيان الشعب التى لها صلة بالعبادات والأخلاق. وكتابه القيم بقى مخطوطا دهرا ثم منى أخيرا بمحقق(١) أصدر طبعة مشوهة محرفة ناقصة لا تخلو صفحة منها من أخطاء فاحشة تدل على عـدم معرفة المحقق بمبادىء علم الكلام وعلم الحديث بل وقلة معرفته باللغة العربية وقواعدها.

ومنهجه فى كتابـه هو منهج المتكلمين فى المناقشة والمجادلة مع الخصوم يرد على أدلتهم بالبراهين المنطقية، ولـكى لا يدع لهم مجالا فى الكلام يورد كل ما يمكن أن يقال ضد الفكرة التى هو بصدد اثباتها ويفترض الأسئلة التى يمكن أن توجه ثم يقوم بالرد عليها وتفنيد مزاعم خصومه. وهو فى استدلاله يستند عامة إلى العقل ولا يعتمد كثيرا على النقل، وهذا الجانب من الاستدلال العقلى الذى سار عليـه المتكلمون لم يكن موضع اعجاب وقبول لدى أصحاب الحديث والامام البيهقى لم يكن ليخفى عليه هـذا النقص فى منهج الحليمى فأراد أن يكمله بتأليف يكمل ما فى «المنهاج» من نقص من ناحية الاستدلال بنصوص القرآن والسنة.

منهج البيهقى فى كتابه: سـار البيهقى فى كتابه على منهج الحليمى فى «المنهاج» فرسم خطوطه، على نفس المنوال وذكر نفس الأبواب والفصول. وفى الأبواب الأولى — وبخاصة تلك التى تتعلق بفروع الايمان — نراه يعتمد كثيرا على الحليمى ويورد كلامه بالاختصار والتلخيص ويتبع منهجه فى الاستدلال بالبراهين المنطقية والجدل الكلامى وأورد فصولا ممتعة فى تفسير اسماء الله الحسنى ولـكنه كان لخص كلام الحليمى فى كتابه «الأسماء والصفات» فلم يرو أن يعيده فى «شعب الايمان»

(١) هو السيد حلمي محمد فوده ونشرت الـكتاب دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٩م.

واختار اسلوب الأستاذ أبى اسحاق الاسفراييني الذى صنف أسماء الله تعالى إلى ثلاثة أصناف .

اسماء الذات — وذكر فيه ٢٨ إسما .

واسماء صفات الذات وذكر فيه أيضا ٢٨ إسما

وأسماء الفعل وذكر فيه ٤٣ إسما

فتبعه البيهقى(١) فى ذلك وقام بتفسير كل اسم وشرح معناه معتمدا — فى الغالب على كلام الاسفراييني .

ويختلف تقسيم الحليمى للأسماء الحسنى عن هذا التقسيم فإنه صنفها إلى خمسة أصناف(٢) :

١ — الأسماء التى تتبع اثبات البارى — جل ثناؤه — والاعتراف بوجوده .

٢ — الأسماء التى تتبع اثبات وحدانيته — عز اسمه .

٣ — الأسماء التى تتبع اثبات الابداع والاختراع له .

٤ — الأسماء التى تتبع نفى التشبيه عن الله — تعالى جده .

٥ — الأسماء التى تتبع اثبات التدبير له دون ما سواه .

وقد سار عليه البيهقى فى كتابه « الأسماء و الصفات(٣) » كما مرت الإشارة إليه .

وبعد الانتهاء من الأبواب الخاصة بالايمان يسير البيهقى على منهج خاص به وهو منهج المحدثين عامة فيحاول اثبات المسألة بنصوص من القرآن والسنة فهو يفتتح الباب بذكر آيات من القرآن ثم يتبعه بسرد الأحاديث والآثار

(١) راجع شعب الايمان (٢٨١/١ وما بعدها)

(٢) المنهاج (١٨١/١ — ٢١٠)

(٣) ص ٢٣ — ١١٨

بأسانيده ويشير إلى تخريج الشيخين أو أحدهما لحديث الباب فى كتابه . كما يبين العلة فى الحديث .

والكتاب مصدر هام فى الحديث وبخاصة فى الأبواب التى لها علاقة بشعب الايمان . ولكنه يؤخذ على البيهقى أنه أكثر — فى بعض الأبواب — من ايراد كلام الزهاد والمتصوفة من المتأخرين . و بعض أبواب الكتاب وبخاصة من أبواب الرجاء و التوكل وحب النبى ﷺ و توقيره و نشر العلم وتلاوة القرآن وحفظ اللسان مفيدة جدا .

ولم يكن الكتاب طبع و بدأت دار النشر و الطباعة فى الهند — وهى الدار السلفية فى بومباى — طبعه وعهدت إلى بمهمة تحقيقه وكانت مهمة شاقة جدا لعدم توفير نسخ صحيحة للكتاب ولعدم وجود مراجع كافية فى مكان العمل و لكننى توكلت على الله وبدات العمل وبذلت أقصى جهودى فى تحقيق النصوص وتخريج الأحاديث والآثار وصدر منه سبعة أجزاء — وكان الكتاب سيتم حسب تقديرى فى ١٦ جزء — ثم حالت ظروف دون استمرار فى العمل وبلغنى أن الدار المذكورة تنوى فى اصدار بقية أجزاء الكتاب بمساعدة من بعض الباحثين فوفقهم الله لذلك .

